الفصل التاسع

السياسة الخارجية والسياسة الداخلية
الاتحاد السوفيتي – إسرائيل – الفلسطينيون

تتنازعني مشاعر الصداقة والود المتناقضة. واليوم عندما يتصارع العالم العربي وإسرائيل نبدو منقسمين على أنفسنا، ويصبح هذا الصراع جزءًا من مأساتنا الخاصة.

جان بول سارتر

بعد انتهاء انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان في فبراير 1989م قام وزير الخارجية السوفيتي بزيارة إلى كل من دمشق والقاهرة وبغداد وطهران. فبعد أن نجت بنفسها من المستنقع الأفغاني سعت القيادة السوفيتية إلى إرساء علاقات متبادلة مع واشنطن ومع أطراف أزمة الشرق الأوسط وكل البلدان الإسلامية.

كان التعامل بواقعية مع الأحداث في الشرق الأوسط يعني ببساطة التخلي عن مبدأ «عدو عدوي – صديقي» وعن الدعم المؤدلج للبلدان ذات التوجه الإشتراكي فقط لكونهم يعلنون صراحة عن رفضهم للسياسة الأمريكية، ومعارضتهم للإمبريالية. وإذا كان الاتحاد السوفيتي قد تراجع عن مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية فمعنى ذلك هو تراجع أهمية الصراع العربي الإسرائيلي في قائمة أولويات السياسة السوفيتية. ولذا كان الاتحاد السوفيتي على استعداد للمشاركة في التسوية إذا كان الطرفان على استعداد للقبول بحل وسط.

غير أن موقف كهذا لم يلق في السنوات الأولى تفهمًا أو ثقة من جانب الولايات المتحدة أو إسرائيل. فقد كانت سياسة واشنطن المنتصرة تهدف إلى إبعاد الاتحاد السوفيتي لأقصى قدر ممكن عن الشرق الأوسط، وإضعاف موقفه تدريجيا، وعدم السماح له بالقيام ولو بدور رمزي. ولعب غياب التوافق بين الدولتين العظميين دورًا هامًا في تسليح صدام حسين بشكل مبالغ

فيه. اهتم الاتحاد السوفيتي بتوريد شحنات ضخمة من السلاح إلى العراق أملًا في الحصول على العملة الصعبة. كما جرى في الوقت نفسه تسليح سوريا وإن كان بقدر أقل.

ومثلت نقطة الضعف الأساسية في السياسة الأمريكية الداعمة لإسرائيل في تجاهل المطالب الفلسطينية (العربية)، والمنظمة السياسية الفلسطينية الوحيدة ذات الثقل وهي منظمة التحرير الفلسطينية. وكان الاتحاد السوفيتي لاعبًا ناجحًا في الخريطة الفلسطينية.

سعت القيادة السوفيتية بإخلاص إلى دفع عملية التسوية السياسية للصراع العربي الإسرائيلي. ولكن الأطراف الأخرى لم تكن مستعدة لذلك. وأبدت القيادة الإسرائيلية مقاومة شديدة لقناعتهم بأن أي تسوية يجب أن تتضمن حلا للمشكلة الفلسطينية.

وفي أثناء اللقاء الذي تم في مارس عام 1989م مع وزير الخارجية الأمريكي ربط شيفرنادزه العلاقات السوفيتية الأمريكية ومشكلة نزع السلاح بالموقف في مناطق الصراعات الإقليمية وخاصة منطقة الشرق الأوسط لا سيما مع انتشار الصواريخ فيها. ورأت القيادة السوفيتية حينها أن العلاقات السوفيتية الأمريكية يجب أن تقدم النموذج في تسوية الخلافات بين الدول. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن يكون التعاون الجديد بين البلدين عاملًا مساعدا على تحقيق التقدم في هذا الاتجاه.

وعلى الرغم من ذلك كانت «طريقة التفكير الجديدة» تلك في رأي الإسرائيليين عديمة الفائدة في طرح أفكار جديدة في التسوية العربية الإسرائيلية. والسبب ببساطة يكمن في أن إسرائيل كانت لتقبل بالتقارب فقط من وجهه نظرها هي.

فما السبب في إصرار الاتحاد السوفيتي على عقد مؤتمر للسلام؟ من الواضح أن هناك عدد من العوامل قد دفعته إلى ذلك. أولها: أنه بمشاركته في المؤتمر يستطيع تجنب أي تسوية تضر بمصالح الاتحاد السوفيتي. وثانيا: اكتساب المزيد من النفوذ الدولي بلعب دور صانع السلام. وثالثا: أن يصبح بمعية الولايات المتحدة ضمانة للالتزام بهذه الاتفاقيات وبالتالي ضمان التواجد السياسي للاتحاد السوفيتي في منطقة الشرق الأوسط. وقد أظهرت المقترحات السوفيتية فيما يتعلق بعنوان المؤتمر والمشاركين فيه والإجراءات مرونة سياسية كبيرة.

ولم يكن أي من أهداف الاتحاد السوفيتي من انعقاد المؤتمر يتناقض مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية. كانت الشكوك لدى واشنطن مع ذلك قوية، واستمرت محاولاته لإبعاد الاتحاد السوفيتي عن الشرق الأوسط، ولذا لم تدعم أمريكا المبادرة. ولم تثمر اللقاءات التي تمت على أعلى مستوى بين الخبراء بما فيهم مدير إدارة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في الخارجية السوفيتية فلاديمير بلياكوف مع مساعد وزير الخارجية الأمريكي ريتشارد ميرفي إلى إحداث تفاهم مشترك.

وبعد مرور عامين من انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان استمر الخلاف بين موسكو وواشنطن حول قضايا الشرق الأوسط. وفي إبريل 1990م. وفي أثناء اللقاء الذي عقد بين ميخائيل جورباتشوف والرئيس السوري حافظ الأسد اتفق الطرفان على أن «عملية التسوية الشاملة والوصول إلى هدف تنظيم المؤتمر الدولي تتعثر بسبب موقف واشنطن. وأن هذا الموقف أسوأ حتى من موقف الإدارة الأمريكية السابقة، ونتيجة لذلك تتجاهل الحكومة الإسرائيلية البحث عن مخرج حقيقي للأزمة وتتصرف بشكل عدواني واستفزازي»[1]

المؤلف[2]: كيف ترون الموقف في الشرق الأوسط في ظل غياب التوافق السوفيتي الأمريكي؟

إدوارد شيفرنادزه: كنا نشعر بفقدان الثقة. كان علينا التوصل إلى صياغة للشراكة في مناطق أخرى من العالم الثالث – وسط أمريكا أو جنوب أفريقيا حتى نخلق مناخًا من الثقة والتعاون المتبادل. بالطبع كان يجب علينا استعادة العلاقة مع إسرائيل كي نلعب دورًا أكثر نشاطًا وفاعلية في عملية التسوية الشرق أوسطية. أخطأنا عندما قطعنا علاقاتنا الدبلوماسية مع إسرائيل.

وتم حل الحكومة الإسرائيلية. ولم يعترض وزير الخارجية شيمون بيريز الذي كان وقتها يشغل منصب رئيس الوزراء على تنظيم المؤتمر بشكل أو بآخر نظرًا لإصرار ملك الأردن على تنظيمه. فيما عارض التكتل اليميني بزعامة حزب الليكود بزعامة إسحاق شامير، والذي لم يكن على استعداد للتخلي عن فكرة ضم الأراضي المحتلة.

وخلال الفترة التي تلت عام 1967م كرر الاتحاد السوفيتي مقترحاته فيما يتعلق بمشكلة الحدود الإسرائيلية، وتأسيس الدولة الفلسطينية على أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة وحول مصير القدس الشرقية. وبحلول نهاية الثمانينيات لاح تطور جديد تمثل في أنه إذا سعي الاتحاد

السـوفيتي إلى الاهتمام بمصالحه العسكرية والاستراتيجية في المنطقة فإن صيغة التسوية ستبدو منعدمة الأهمية بالنسـبة له. كان الأهم بالنسـبة له الالتزام بالأسس الثلاث التي يقوم عليها الموقف السوفيتي والتي تتمثل في ضرورة الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة في 1967م والاعتراف بالحقوق الوطنية للفلسطينية، وضمان أمن كافة الدول في المنطقة بما فيها إسرائيل. كان هذا الموقف مفيدًا للاتحاد السوفيتي لدرجة أنه لم يستطع التخلي عنه حتى في أثناء سعيه لإرساء تعاون واسع مع واشنطن وإسرائيل.

وقـد أدى عدم وجـود علاقات رسمية بين الاتحاد السـوفيتي وإسـرائيل إلى تقييد حركة الدبلوماسـية السوفيتية في الشرق الأوسـط. وصرح وزير الخارجية السوفيتي أندريه جروميكو أثناء لقائه بنظيرة الإسرائيلي في مؤتمر جينيف في 1973م أن عملية السلام يمكن أن تساعد على استعادة العلاقات بين البلدين.[3]

وبعد مرور 14 عامًا وفي إبريل 1987م أعلن ميخائيل جورباتشـوف في حضور الرئيس السوري الأسد أن القطيعة الدبلوماسية مع إسرائيل هي أمر غير طبيعي. [4] كانت تلك لهجة جديدة على الخطاب السوفيتي، وتم التأكيد على هذه الفكرة أكثر من مرة.

وأورد هنا مقتطفا من حوار جرى مع السـفير السـوفيتي ومن ثم الروسـي لدى إسرائيل أ. بوفين. [5]

أ. بوفين: لماذا قطعنا علاقتنا بإسرائيل؟ هل كنا نستجدي أصدقائنا العرب؟ أرى إن ذلك كان مبررًا ضعيفًا. لدينا مصالحنا الوطنية الثابتة في الشرق الأوسط وهي مصالح تتسم بطابع متوازن في علاقتنا بكل من العرب وإسرائيل. وبابتعادنا عن إسرائيل أحدثنا خللًا كبيرًا في هذا التوازن، ووضعنا أنفسنا في موقف حرج فيما يتعلق بعلاقتنا بالأمريكيين في المقام الأول وتسببنا لأنفسنا في خسائر سياسية في السبعينيات.

المؤلف: ربما في بداية السبعينيات.

أ. بوفين: ربما. حادثت بريجينيف في منتصف السـبعينيات. لم يشر عليَّ بموقف واضح، ولكنه ذكر بعض النقاط التي تصب في صالح استعادة العلاقات مع إسرائيل. ربَّما كان موقف جروميكو أكثر تشـددًا. كان لدي انطباع مجتزأ. وعندما وصل شيفرنادزه تمت إثارة الموضوع مرة أخرى وطرحه الوزير الجديد رسميًا. إلاَّ أن المكتب السياسي كان يعارض بشدة.

المؤلف: من تحديدًا في المكتب السياسي؟

أ. بوفين: لا أعرف. عندما تم تعييني سفيراً في إسرائيل كان أول ما فعلته الذهاب إلى شيفرنادزه وسألته عن ذلك؟ قال لي دون أن يُسّمي أشخاصًا أنه واجه معارضة دائمًا. وأن جورباتشوف قال له «لا تتعجل فالآخرون سيعارضونك في هذا الأمر»

المؤلف: ولكن يجب أن يكون هناك منطق في معارضتهم تلك.

أ. بوفين: هناك سببان. معاداة السامية والتي لا استثني القيادة منها، وانعكس ذلك في سياسة الدولة. أعلم كيف يتعامل بعض أعضاء المكتب السياسي مع غيرهم المشكوك في كون أبائهم أو أمهاتهم ينحدرون من أصول يهودية. لن أسمي عائلات بعينها فهم أناس ما زالوا على قيد الحياة، والسبب الثاني يكمن في إخواننا العرب. هؤلاء حلفاؤنا وأصدقاؤنا. فلم نغضبهم؟

المؤلف: ربما هناك سبب ثالث ويتمثل في الضغط الذي مارسته الدوائر العسكرية والاقتصادية والتي ازدهرت بسبب التعاون مع العرب؟

أ. بوفين: أعتقد أن العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل لم تكن تحتم علينا التخلي عن مواقعنا في البلدان العربية أو استمرار التبادل التجاري وحتى بيع السلاح.

ومع بداية البيروسترويكا بدأت التعليقات الإيجابية في صالح إسرائيل تظهر في الصحافة السوفيتية رغم أنها لم تكن تعبر عن الخط السياسي للقيادة السوفيتية، بل عن انشقاق كبير في وسائل الإعلام. قامت جهات بعينها، أو صحفيون بإظهار تعاطفهم مع إسرائيل وموقفها من الصراع العربي الإسرائيلي المختلف عن الموقف الرسمي للدولة. ومع بداية التسعينيات أصبحت اللهجه التي تعبر بها معظم الجهات الإعلامية فيما يتعلق بإسرائيل تتسم بالود في حين اختفى الدفء في الحديث عن العلاقة مع الفلسطينيين والعرب بشكل عام. غير أن الصحافة الروسية القومية استمرت في انتقاد الصهيونية وإسرائيل.

في يوليو 1985م التقى سفيرا الاتحاد السوفيتي وإسرائيل في فرنسا ما أثار شائعات عن قرب استعادة العلاقات الدبلوماسية. واشترط رئيس الوزراء الإسرائيلي حينها شيمون بيريز لمشاركة الاتحاد السوفيتي في التسوية الشرق الأوسطية استعادة العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل. [6] واستمر الجدل بين الطرفين لست سنوات حول من يأتي أولا: استعادة العلاقات

الدبلوماسية ومن ثم عملية السلام أم مشاركة إسرائيل في العملية السلمية (المؤتمر الدولي) ومن ثم إســتعادة العلاقات. وبالنسبة للباحثين في شؤون الشرق الأوسط المهتمين بحقيقة وجود أو غياب السفارات في عاصمتي الدولتين كان هذا الجدال هامًا في حين يرى مؤلف هذه السطور أنه جدل ثانوي فالأهم هو المضمون الحقيقي للحوار والأكثر أهمية الإجراءات السياسية.

وتواصل الحوار. تحاور رئيس الوزراء الإسرائيلي بيريز مع وزير الخارجية السوفيتي شيفرنادزه في الأمم المتحدة أثناء لقائهما في نيويورك في 26 أكتوبر 1985م. وفي 18 أغسطس التقى دبلوماسيون سوفيت وإسرائيليون في هيلسنكي. ولكن بدا أن ممثلي البلدين ما زالوا يتحدثون بلغة مختلفة. فقد أثار الإســرائيليون قضية هجرة اليهود الســوفيت فيما رغب الدبلوماسيون السوفيت في مناقشة مسائل قنصلية.

وفي إبريل 1987م التقي وزير الخارجية الإسرائيلي شيمون بيريز في روما مع نائب رئيس القســم الدولي باللجنة المركزية للحزب ك. يروتينيتس ومستشار القسم الدولي لشؤون الشرق الأوســط أ. زوتوف والسفير القادم في سوريا. والتقي شيفرنادزه مع وزير الخارجية الإسرائيلي موشي أرينز في فرنسا في يناير 1989م، وبعدها بشهر واحد التقيا في القاهرة أثناء جولة قام بها في الشرق الأوسط. وقد سعى الطرفان إلى التقارب. غير أن الصحافة الإسرائيلية انتقدت خطاب شــيفرنادزه حول ضرورة الحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، ووصفته أنه يبدو كشرط لاستعادة العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وإسرائيل.

ووصلت البعثة القنصلية الســوفيتية إلى إســرائيل قي يوليــو 1987م كي تمارس مهامها في خدمة المواطنين الســوفيتي والممتلكات السوفيتية من الأراضي والمباني في إسرائيل. غير أن هذه البعثة ظلت هناك وضمت إليها ممثلًا للخارجية السوفيتية وليس فقط القنصل، وفي عام 1988م وصلت إلى موســكو بعثة قنصلية إســرائيلية. وبنهاية العــام اتخذ البلدان خطوات غير مســبوقة على طريق التعاون فيما يتعلق بتسليم المجرمين الذين اختطفوا الطائرة السوفيتية وهبطوا بها في إســرائيل. وقدم الإسرائيليون المساعدة لضحايا الزلزال في أرمينيا، وبدأ البلدان في استعادة العلاقات الثقافية.

وقد تضمن جدول الأعمال قضية أكثر أهمية من إعادة العلاقات الدبلوماسية وهي هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل، وهي القضية التي فاقت في أهميتها ما عداها.

وقد ساعد تطور العملية الديمقراطية في الاتحاد السوفيتي على رفع القيود على الهجرة من البلاد. حيث تم منح تصاريح بالهجرة لعدد 10 – 12 ألف شخص سبق وأن رفضت طلباتهم. وفي عام 1987م تم السماح لعدد 8000 آخرين بالهجرة إلى إسرائيل. ثم تضاعف العدد في عام 1988م ثم تضاعف مرة أخرى مرات ليصل إلى عشرة آلاف شهريًا. ووصلت موجات الهجرة إلى ذروتها في ديسمبر 1990 حيث وصلت إلى 35 ألف مهاجر ثم انخفض لأربعة أضعاف في فبراير 1991م إلى أربعة آلاف فقط. وبلغ إجمالي المهاجرين السوفيت في عام 1992 حوالي 400 ألف. [7]

كان هناك أمران مرتبطان يمثلان تهديدا لأمن ومستقبل إسرائيل، وهما الانتفاضة الفلسطينية والوضع الديمغرافي. كانت العلاقة بين نسبة المواليد والوفيات بين اليهود تؤدي إلى تساوى عدد اليهود مع العرب في الضفة الغربية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وساعدت موجه الهجرة السوفيتية على تغيير الوضع الديمغرافي. ولو كان لديهم خيار لفضل 80 – 90 بالمئة من اليهود السوفيت الهجرة إلى أمريكا. غير أن كلا من أمريكا وإسرائيل بذلا جهودًا كبيرة لتوجيه هذه الموجه إلى إسرائيل.

كما لم يبخل الاتحاد السوفيتي بأي جهد في سبيل تنفيذ إسرائيل لتعهداتها بعدم توطين اليهود السوفيت بالأراضي المحتلة. كما اجتهدت الإدارة الأمريكية أيضًا في هذا الاتجاه ولو بالكلمات أكثر من الأفعال. غير أن الاتحاد السوفيتي كان يفتقد إلى أدوات ضغط حقيقية على الحكومة الإسرائيلية.

بالنسبة للاتحاد السوفيتي كانت العلاقات مع إسرائيل وأزمة الشرق الأوسط بمثابة القضية الحساسة والمهمة في السياسة الداخلية والخارجية. ولكي نتخيل وزنها الحقيقي يجب أن نعود قليلًا إلى التاريخ.

في بداية القرن كانت روسيا القيصرية تضم بولندا ويقطنها أكبر جالية يهودية في العالم تبلغ أكثر من خمسة ملايين نسمة، وهو ما يوازي أكثر من ثلثي عدد اليهود في العالم حينها. ومع حلول التسعينيات أصبحت هذه الجالية الثالثة من حيث الحجم بعد الولايات المتحدة وإسرائيل. ووفقًا لإحصاءات الرسمية بلغ عد اليهود في الاتحاد السوفيتي حوالي 2. 2 مليون نسمة. [8] ولكن يمكن الاعتقاد أن هذا العدد كان يشمل فقط من دون في جواز سفره لفظة «يهودي» حيث كان هناك الكثيرون من الروس والأوكرانيين والبيلاروس من لم يسجل هذه الكلمة في خانة «القومية»

وهنا تثور بطبيعة الحال مسألة من نعتبره يهوديًا في الاتحاد السوفيتي. ففي فرنسا مثلًا كلمة «فرنسي» أو «إنجليزي» تكتب بحرف كبير في البداية وتعني الانتماء القومي حيث يمتزج مفهومًا «الجنسية» مع «الانتماء القومي». أما كلمة «يهودي» فهي مثل «مسيحي» تكتبا بحرف صغير وتعني الانتماء الديني. وهكذا يصح أن تكون قومية الشخص — فرنسي ولكنه يمكن أن يكون في الوقت نفسه مسيحيًا أو مسلمًا أو يهوديًا. وفي روسيا القيصرية كان اليهودي يعتبر ضمن السلاف المسيحيين. وكان اليهود يضمون طائفة الأشكيناز المنحدرين من ألمانيا، وكذا يهود الجبال ويهود بخارى. ومهما كان الأمر فإن أغلب اليهود السوفيت كانوا من الأشكيناز وهم من يدور الحديث عنهم الآن.

ويعتقد أن فلسطين قبل نشأة إسرائيل استقبلت عدة موجات من المهاجرين منذ عام 1880م، عندما وصل أول المستوطنين الأوربيين على هذه الأرض. وتعود الموجه السادسة إلى الفترة من 1939 – 1948م وجاءت نتيجة لحملات الإبادة النازية ضد اليهود. وصلت الموجات الثلاث الأولى القادمة من روسيا القيصرية بما فيها بولندا والبلطيق. ثم قدم إلى فلسطين رجال ونساء من المؤمنين بفكرة إعادة تأسيس إسرائيل. وتعرض الكثيرون منهم إلى تأثير الفكر الثوري في روسيا. وتشكلت الحركة الصهيونية أساسًا في روسيا وبولندا. وتعود أصول الكثيرين من الزعماء التاريخيين ومنظري الصهيونية إلى روسيا الإمبراطورية. وتشكلت طريقة تفكير المثقفين اليهود ورجال السياسة بفعل تأثير الطبقة المثقفة الروسية. وقد كتب المؤرخ والتر لاكير: «إن نموذج التفكير والعادات والتقاليد والأعراف والذوق عند الطلاب اليهود وغيرهم في روسيا وشرق أوروبا كانت متشابهة في بداية القرن. . . كانت هناك قيم مشتركة تجمع المثقفين الروس واليهود الروس تمثلت في حب الحياة والمثالية والروح المنفتحة وحب النقاشات والخطب الطويلة». [9]

وتؤكد الانطباعات الشخصية هذه الملاحظة. ويمكنا تذكر الحوار الذي حدث في لوزان بين ممثلي النخبة في المؤسسة السياسية الليبرالية في يسار الوسط الإسرائيلي. وعلى الرغم من أن الحوار قد جرى باللغة الإنجليزية إلاَّ أنه بدا أنه يدور في منتجع في ضواحي موسكو مع مثقفين يهود سوفيت.

كانت الروابط القديمة أو ما تبقى منها تؤثر بلا شك على القادة الإسرائيليين، وتسمح لهم بالتواصل مع الأشكيناز السوفيت بسهولة. وقد لعب هذا التقارب دورًا هامًا في السنوات الأولى من البيروسترويكا والجلاسنوست واللذان سمحا لليهود السوفيت بحرية التعبير عن مشاعرهم تجاه إسرائيل.

وهنـــاك قضية أخرى خارج إطار موضـــوع هذا الكتاب وتتمثل في ماهية الســـبب وراء ارتفاع نسبة الثوريين بين اليهود في روسيا القيصرية. ويبدو أن الصدمة الاجتماعية الهائلة التي وقعت بفعل تأثير التحولات الرأسمالية في روسيا الإمبراطورية وخاصة في الأقاليم الغربية منها، والـــتي أثرت على الكثير من اليهود وإيقاظ الوعي الاجتماعي، والذي أصبح يهيمن في تلك الفترة على نظيره الإثني والديني، والوضع القاســـي والظلم الذي تعرض له اليهود في روســـيا كغيرهم من مئات الجماعات الإثنية الأخرى. ومن بين المحكوم عليهم سياســـيًا في نهاية لقرن التاســـع عشـــر بلغت نســـبة اليهود 13 % وأحيانا كانت هذه النسبة ترتفع إلى 18 وحتى 24 % [10] وفي معـــرض حديثه عـــن التركيبة العددية للتنظيمات الـــتي كونت حزب العمل الاشـــتراكي الديمقراطي بعد المؤتمر الموحد أشار إلى أن من بينهم 31 ألف روسيا و26 ألف بولنديا و14 ألف ليتوانيا و33 ألف يهوديا.[11]

كان رمـــز الإيمـــان لدى الثوريين وحـــتى الليبراليين يتمثل في التعاون والمســـاواة بين جميع الأمم والقوميات والشـــعوب أو الأعراق والجماعات الإثنيـــة والدينية كما يطلق عليها اليوم. كانت قدرة الطبقة المثقفة الروسية على إيجاد أشكال للتعايش مع غير الروس واحترام مختلف المجموعـــات الإثنية والدينية دافعًا لها للمضي قدمًا في الاعتراض ليس فقط على الممارســـات العنيفة ضد الســـامية ولكل مظاهر الاضطهاد التي مورســـت ضد اليهود في روسيا. ومن بين الذين انبرى للدفاع عن اليهود شـــعراء وكتاب كبار أمثال مكســـيم جوركي وألكسندر بلوك وألكســـندر كوبرين وفلاديمير كورولينكو والعالم إيفان بافلوف والمؤرخ مكســـيم كوفاليفسكي والكيميائي الجيولوجي والفيلســـوف فلاديمير فيرنادســـكي وغيرهم المئـــات من رجال الثقافة والعلم والسياسة بما فيهم زعماء وقيادات حزب العمل الإشتراكي الديمقراطي.

وجدت الحركة الصهيونية العديد من المناصرين لها بين اليهود في روســـيا الإمبراطورية. غير أن لينين كان يرى إن الماركسية لا يمكن أن تجتمع مع القومية حتى ولو كانت الأخيرة الأكثر عدلا وطهرا وتحضرا. [12] وقد طرحت الماركســـية مفهومًا بديلًا للقومية وهو الأممية أي التحام كافة الأمم والقوميات. وتم رفض الصهيونية من قبل البلاشـــفه بوصفها شـــكل من أشكال القومية.

وتوارت أســـطورة ارض الميعاد في فلســـطين وظهرت أســـطورة أخرى تتمثل يفي تأسيس المجتمع الإشـــتراكي وإرســـاء مملكة الرب على الأرض – أراضي الإمبراطورية الروسية سابقا. وكان اليهـــود من بين من ابتكر هذه الأســـطورة ومن بـــين ضحاياها أيضا (أصحاب رؤوس

الأموال الكبيرة والطبقات الوسطى والعليا من الطبقة المثقفة الروسية). وفيما بعد كان منهم الجلادون ومنهم الضحايا، ودائما بنسبة تفوق نصيبهم في عدد السكان.

و قد تم القضاء في العشرينيات والثلاثينيات على التفرقة العنصرية والدينية والقومية الرسمية في الاتحاد السوفيتي واستبدلت بمفهوم جديد هو المساواة الرسمية. واختفت معاداة السامية من الممارسات الرسمية ليس هذا فحسب بل وتم إعلانها مخالفة للقانون وجريمة تستوجب العقاب كغيرها من مظاهر القومية المتطرفة. وفي عام 1927م تم تضمين مادة في القانون الجنائي بهذا الخصوص تعاقب بالسجن لمدة عامين كل شخص يتهم «بالدعاية بهدف إثارة النعرات القومية والدينية»[13]

وقد ضمن المجتمع السوفيتي للمرة الأولى حرية التحرك الأفقي والراسي لليهود. حتى إنَّ كثيرون من قادة ثورة أكتوبر كانوا من اليهود. فقد كان ليف تروتسكي رئيس اللجنة العسكرية الثورية في بيتروجراد ثم اللجنة الشعبية للشؤون العسكرية والبحرية والشخصية الثانية فعليًا بعد لينين يهوديًا. وهناك أيضا ياكوف سفيردلوف عضو اللجنة الثورية العسكرية في بيتروجراد ثم رئيس اللجنة التنفيذية المركزية في الفترة من نوفمبر 1917 حتى وفاته عام 1919م وهو المنصب الذي كان يعادل في نفوذه رئيس الدولة تقريبًا. وهناك أيضا ليف كامينيف الذي عمل في وظيفة نائب رئيس مجلس الكوميساريات وجريجوري زينوفيف مؤسس ورئيس التنظيم الأممي الثالث ورئيس التنظيم الحزبي لمدينة لينينجراد الذي كان يعد الأكبر في العشرينيات. وقد كتب الكاتب الاجتماعي الفرنسي هنري أليج قائلا:«لا توجد دولة متحضرة في الغرب بما فيها فرنسا يتمتع فيها اليهود بهذا الحجم من التعايش والاندماج والتمتع بالحقوق المدنية. . . رغم إنَّ بلوم كان يترأس حكومة الجبهة الشعبية»[14]

و بنهاية الحرب الأهلية وحتى قبيل الحرب الوطنية العظمى انتقل 400 – 500 ألف من يهود أوكرانيا وبيلاروسيا من مواطنهم في القرى للبدء في حياة جديدة في المدن الكبيرة، والمراكز الحضرية الكبيرة وشرعوا في الاندماج في النمط الحياتي الروسي والأوكراني والبيلاروسي.

و بلغت نسبة اليهود الذين يتقلدون مناصب رسمية رقمًا يفوق حصتهم في عدد السكان. و في عام 1927م بلغت نسبة اليهود 1.8 % من عدد السكان في الاتحاد السوفيتي 4.5 % من سكان أوكرانيا ، 2.8 % من سكان من سكان بيلاروسيا و 3.1 % من المناصب الإدارية في موسكو 6.22 % في أوكرانيا 6.30 % في روسيا البيضاء. [15] غير إنَّ النسبة أخذت في التقلص تدريجيًا في روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا.

و في عام 1929م بلغت نسبة حصة اليهود في الجيش الأحمر 9 % ومن بين القادة العسكريين اليهود نذكر ياكير وفيلدمان وجامارنيك. وفي عام 1939م بلغت نسبة اليهود في عضوية اللجنة المركزية 11 % (15 عضوًا من إجمالي 139) وذلك على الرغم من حالات التضييق والاعتقالات والإعدام التي لحقت بهم. [16]

و كان هناك الكثير من اليهود بين المحيطين بيوسف ستالين، ومنهم نسيبه الزوج الأول لسفيتلانا جريجوري مورزوف وزوجة ابنه ياكوف وزوجة اخي زوجته الأولى. وفي العشرينيات والثلاثينيات تعاون ستالين مع الكثيرين من اليهود ولم توجه إليه أي تهمه بالعداء للسامية. ويرى المؤلف إنّ ستالين لم يكن يعاني من أي مشاعر قومية وكان ينظر إلي كل الشعوب كونها قطع شطرنج في النضال من أجل سيادة وانتشار الماركسية البينينية وسلطته الشخصية الشاملة.

و قد سعي اليهود للتميز في التعليم وأصبحوا اليوم أكثر المجموعات الإثنية في مستوى التعليم في الاتحاد السوفيتي. ومن بين كل ألف شخص نجد إنَّ اليهود الحاصلين على تعليم عالي أكثر من الروس بمعدل أربع أضعاف ومن الكازاخ والأوكرانيين بمعدل ست مرات، وأكثر من الاستونيين بمعدل خمس مرات. ووفقًا لإحصاءات 1966 (تغيرت النسب في النصف الثاني من الثمانينيات فقط نتيجة للهجرة إلى إسرائيل) بلغت نسبه الأطباء اليهود 15 % من إجمالي عدد الأطباء في الاتحاد السوفيتي والصحفيين 8% والقضاة والمحامين 10 % والممثلين والموسيقيين والفنانين 8%. ومن بين كل ألف يهودي كان هناك 22 عالمًا مقابل 4 روس و2 اوكرايين. وفي الفترة من 1941 - 1981م بلغ عدد الحاصلين على جائزة لينين من اليهود 142 من بين 1347. [17] علما بان كل هذه النسب تعكس فقط من اعترف بأنه يهودي.

و قد تغير نمط الحياة بشكل حاد حتى لدى من لم ينخرط في النخبة الثقافية والإدارية في البلاد. ففي عام 1924 تضاعف عدد سكان القرى من اليهود مقارنة بفترة ما قبل الحرب حتى وصل إلى 100 ألف. وارتفع الرقم إلى 270 ألف في عام 1935م.

و قد تم تأسيس ثلاث مناطق يهودية ذات حكم ذاتي اثنان منها في القرم. ثم ما لبث النمو السكاني اليهودي ان توقف. [18]

وكان أغلب اليهود قبل الثورة يتحدثون باللغة اليديشية حيث لم تكن العبرية تحظى بالانتشار المطلوب. كان لا يعرفها إلاَّ القليلون ومعظمهم من رجال الدين. وبدأت العبرية في الانتشار ببطء مع ظهور الصهيونية.

و في العقدين الأولين من الحكم السوفيتي تم السماح للثقافة اليهودية بالتطور. وفي الوقت نفسه كانت عملية الإدماج تتم على قدم وساق. و في عام 1926م بلغ عدد اليهود الذين لا يعتبرون اللغة اليديشية لغة أم 30% على الرغم أنها كانت اللغة الأم للأغلبية المطلقة من اليهود في نهاية القرن التاسع عشر. وتزايد عدد المدارس الابتدائية التي تستخدم اللغة اليديشية حتى الثلاثينيات ثم ما لبث أن تقلصت بكل حاد. وفي عام 1933م كتب أحد الشعراء اليهود العظماء بيريتس ماركيش بحزن قائلاً:«هجرنا القراء. لم يعد أحد يحتاج الكتب باللغة اليديشية». [19] وأشار الكاتب والصحفي السوفيتي سيمان رابينوفيتش إلى إنَّ كثيرين من اليهود أرادوا الاندماج مع أغلبية السكان. «هناك جيل من اليهود الذين قدموا من الأقاليم بدؤوا في الإنصهار والإندماج مع غيرهم من القوميات. أصبح أبناؤهم يتلقون تعليمهم في محيط مختلف بالطبع. ومع الوقت أصبح هؤلاء يستخدمون اللغات الروسية والأوكرانية والبيلاروسية في بيوتهم وعائلاتهم. . . »[20]

و قد تخلى اليهود السوفيت عن أصولهم بشكل أسرع وأكثر راديكالية من اقرأنهم في فرنسا أو ألمانيا. وبعد انتصار الثورة قاطعوا معابدهم. كما تم تدمير المعابد اليهود من قبل السلطات الملحدة مثلها مثل الكنائس والمساجد.

غير أن سياسة البومرنج ضربت اليهود في مقتل. فقد أدى السعي نحو الاندماج مع الروس والأوكرانيين والبيلاروس إلى فقدانهم هويتهم الإثنية والعقائدية.

و مع انتقالهم إلى المدن الكبرى عقد اليهود آمالهم على الاندماج الكامل في الحياة السوفيتية. وبوعي أو دون وعي تخلوا عن طريقة تفكير الجيتو. أمَّا حقيقة إنَّ هذه الحياة الجديدة تعني فقدان الهوية اليهودية فلم تك تثير قلق الأغلبية. و حتى لو حافظوا على الروابط والصلات التي تربطهم بثقافة اليديش، وحتى لو شعروا بارتباطهم بالموسيقى وأغاني الطفولة اليهودية القديمة وبقوا مخلصين لتقاليدهم القديمة فقد أداروا ظهورهم وغادروا قراهم الفقيرة وولوا وجوهم نحو الحياة الجديدة في بلد لم تكن فيه الأصول القومية أو الدينية تحتل أهمية.

وقد دعم اليهود أفكار الدعاية البلشـفية حول انصهار الأمم والقوميات وعن الأممية. ولم يكن هذا الموقف جديدا. ففي أثناء الثورة الفرنسـية 1789م طالب ممثلو اليهود الفرنسـيين بقبولهم كمواطنين فرنسيين ضمن القومية الفرنسية. [21]

و قد أيقظت أهوال عمليات التطهير النازية مشـاعر اليهود القومية النائمة. وفي السادس من إبريل 1942 قام سـتالين بتأسيس لجنة أطلق عليها لاحقًا اسم اللجنة اليهودية للنضال ضد الفاشـية برئاسـة الممثل سـليمان ميخائيل، وهدف من هذه الخطوة إلى توحيد الجهود لمقاومة هذا العدو القاتل واكتساب التعاطف في الغرب. وقد ضمت اللجنة رجال ثقافة ودولة مشـهورين من أصول يهودية. وبنهاية الحرب كتب سليمان ميخائيل خطابًا إلى ستالين اقترح فيـه تجميع اليهود الناجين في القـرم. (و المؤلف هنا لا يطرح قضية أخلاقية أو عدم أخلاقية هذا المطلب بتوطين المضطهدين اليهود الأبرياء على أراضي شعب آخر مضطهد وتم التنكيل به وهو تتار القرم). ولاحقا نظر ستالين إلى هذا المقترح بكونه جريمة سياسية.

و قـد حكي أحد العاملـين في المخابرات العامة قائلا:«بعد الحرب لعب سـتالين على مشـاعر القومية الروسـية التي أنقذته أثناء الحرب. وقد أخبرني أحد الأشخاص الذين اطلعوا على قرار سـتالين ورده على خطاب ميخائيل: «في القرم تم سـفك دماء روسية كثيرة بحيث لا يمكن هكذا ببسـاطة أن نعطيه لأحد مهما كان». ووضع نقطه في نهاية الجملة ثم كسـر القلم عند النقطة».

و خلال سنوات الحرب تم منح 340 ألف يهودي سوفيتي أوسمة وميداليات على الجبهة وفي مؤخـرة الجيش. كما نـال 157 لقب بطل الاتحاد السـوفيتي و72 لقب بطل العمل الإشتراكي. [22]

لم يكن هناك أي شك في إخلاص اليهود السوفيت وولائهم إلى نظام ستالين أثناء الحرب وخلال السنوات الأولى بعد انتهائها. كان تحرير أراضي الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية مـن الاحتلال النازي ودحر ألمانيا الفاشـية يعني إنقاذ اليهـود الناجين من عمليات التطهير العرقـي، وقد حدث ذلك بفضل الجيش الأحمر الذي دفع ثمنًا غاليًا وراح في سـبيله أعداد غفيرة من الضحايا من كافة شعوب الاتحاد السوفيتي.

و في يالطا عقد لقاء بين كل من ستالين وروزفيلت وتشيرشل في فبراير 1945 اتفقوا فيه على تجميع اليهود في موطن جديد لهم في فلسـطين والسماح بهجرة اليهود من كافة الأرجاء إلى هذا البلد في اقرب وقت.

و لم تكن القضية الفلسطينية تشغل اهتمامًا كبيرًا في السياسة السوفيتية في منطقة الشرق الأوسط. و كانت موسكو تنظر إلى البلدان العربية بوصفها مناطق نفوذ للاستعمار البريطاني ولـذا كانت ترحب بأي محاولـة لإضعاف هذا النفوذ. و في عـام 1946م طالب الاتحاد السوفيتي بوقف الانتداب البريطاني في فلسـطين وانسحاب القوات البريطانية وتأسيس دولة «فلسـطين المسـتقلة». ثم ظهر مصطلح «الدولة العربية اليهودية المتحدة». غير أن موقف البلـدان العربية الرجعيـة والموالية لبريطانيا وموقف الصهاينة المعـارض لبريطانيا والاتصالات القديمة مع يهود اليسـار في فلسطين قد سـاعدت على حدوث تطورات جادة في السياسة السوفيتية.

جذبت الحرب التي خاضها الصهاينة في فلسطين من أجل إنشاء دولتهم اهتمام ستالين. فقرر تقديم الدعم لهم. وكان منطقه في منتهى البسـاطة: العالم العربي وقع تحت هيمنة نظم رجعية موالية لبريطانيا وفرنسـا. وانتصار الصهاينة في فلسـطين كان يعني بدوره هزيمة بريطانيا وعرائـس الماريونيت الموالين لها. ومعنى ذلك إنَّه مـن الضروري تقديم الدعم إلى الصهاينة في فلسطين حيث تم إرسال السلاح والجنود الذين كانوا في الأساس يهودًا ذوي خبرات قتالية.

أخطأ سـتالين في تقديراته. ولكن الموقف السوفيتي الذي صيغ في شكل بيانات سياسية بدا مقنعًا ومؤثرًا وأن هناك من عمل على صياغته بدقة حتى أنه وعلى مدى نصف قرن تقريبا لم تحتج إلى أي تعديل أو تصحيح.

و في نوفمبر 1947م وفي أثناء جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة دعم الوفد السوفيتي برئاسة جروميكو «القرار الأكثر قبولا» والداعي إلى تقسيم فلسطين حيث تم رفض بالإجماع مقترح إنشاء دولة عربية يهودية موحدة يحظى فيها كل من اليهود والعرب بحقوق متساوية.

و صرح جروميكو:« إنَّ مقترحات تقسـيم فلسطين إلى دولتين مستقلين ليست موجهه ضـد العرب. وإنَّ هـذا القرار ليس موجه ضد واحدة من الشـعوب الأصيلة التي تسـكن فلسطين. بل على العكس من ذلك فإن الوفد السوفيتي يرى إنَّ القرار يتوافق والمصالح الوطنية الأساسية لكلا الشعبين سواء مصالح الشعب اليهودي أو الشعب لعربي» [23]

و من خلال التأكيد على حرص الاتحاد السوفيتي على تفهم الطموحات الوطنية للشعوب في الشرق العربي وتعاطفه مع جهودها للتحرر من التبعية صرح جروميكو إنَّ «الشعبين الذين يعيشان على أرض فلسطين كل منها له جذور تاريخية قديمة». وكرر جروميكو حقيقة معاناة

اليهـــود أثناء الحرب التي شـــنها هتلر وكانت معاناتهم أكثر من أي شـــعب آخر. وفي الختام أضاف إنَّ «تسوية القضية الفلسطينية على أساس تقسيم الدولة إلى دولتين مستقلين سيكون لـــه أهمية تاريخية كبيرة لأنه يتفق والمطالب الشـــرعية للشـــعب اليهـــودي الذي ما زال مئات الآلاف منهم يعانون في الشتات بلا وطن يؤويهم»[24]

وقـــد عد العرب هذا المقترح تصرفًـــا فاضحًا ومهينًا وغير مقبـــولًا. واعتبروا إنَّ هناك من يرغمهـــم على دفع ثمـــن «الظلم التاريخي» التي تم ارتكابه في حق اليهود من قبل ألمانيا أثناء حكم هتلر.

وقد صوت الاتحاد الســـوفيتي في نوفمبر 1947 لصالح قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 181 «بتقسيم فلسطين إلى دولتين»[25]

و لم تمر 48 ساعة من الإعلان رسميًا عن تأسيس دولة إسرائيل في 14 مايو 1948 إلاَّ وكان الاتحاد السوفيتي أول الدول التي أعلنت الاعتراف بها، ومن ثم قام بتقديم دعم عسكري حقيقـــي للصهاينة في حربهم ضد العرب. كان هنـــاك «خط الهدنة» قبل 1967م[26] وكان ذلك تطورًا منطقيًا للموقف الذي اتخذه الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة.

و بدا تأسيس دولة إسرائيل بالنسبة لليهود السوفيت الذين خرجوا لتوهم من هول الحرب وعانـــوا من التطهير والعنصرية في معتقلات الموت، وحاربـــوا النازيين بمثابة انتقامًا إضافيًا من النازية، ومن كل قاتلي اليهود في التاريخ. وقد تقبل كل من اليهود والمواطنون الســـوفيت هذا القرار بمشـــاعر الفخر. ولم يفكروا حينها في حجم المعاناة التي سيتحملها الفلسطينيون لاحقا وحتى اليهود أنفسهم. كان هناك رغبة كبيره لدى اليهود السوفيت في الهجرة إلى إسرائيل.

وفي ســـبتمبر 1948م قام أول وفد رسمي إســـرائيلي بزيارة موسكو برئاسة السفيرة جولدا مائير (مايرســـون). وخلال عدة أســـابيع حضرت الاحتفال الرسمي بيوم كيبور الذي جرى في المعبد اليهودي الكبير. وكتب يوري كوليسنيكوف في مذكراته:« في المعبد اليهودي الذي يقع في شارع أرخيبوف تجمع الناس بكثرة حتى أنه من الصعب أن تجد موضع قدم. تجمع اليهود من موســـكو ومن المدن الأخرى. . . وفي النهاية خرجت جولدا مائير من المعبد إلى الشارع. ودوت صرخـــات الترحيـــب وأخذ الناس يهنئـــون بعضهم البعض وكأنه عيـــدًا. . . وأخذوا يكـــررون عبارات الترحيب:«في العـــام القادم، في العام القادم!» فصرخت قائلة وهي تعي ما تفعل:«العـــام القادم في أورشـــليم!». وعندما سمع الحضور هـــذه الكلمات فهموا إنَّ الحزب

والحكومة سيوجهون عاجلًا نداءًا لليهود بالسفر إلى إسرائيل التي أصبحت صديقًا جديدًا للاتحاد السوفيتي حتى يساهموا في بناء الإشتراكية هناك. . . لم يكن احد يشك في أنْ ما تقوم به مائير هو بموافقة ستالين وحكومته. [27]

و من جانبها كانت جولدا مائير ذات الأصول الأوكرانية تتفهم الواقع السوفيتي وتعي جيدًا أن العلاقات المميزة التي إقامتها مع اليهود السوفيت قد خلقت نوعًا من الازدواجية الخطيرة في المفاهيم»[28]

ويواصل كوليسنيكوف: «حتى أنها مضت قدمًا في سياسة الاستفزاز، وضاعفت من اتصالاتها بالنساء اليهود المتزوجات من مسؤولين محيطين بستالين. . . وذات مرة وفي أثناء حفل استقبال رسمي توجهت بحديثها إلى السيدة بولينا جيمتشوجينا (زوجة مولوتوف) والتي كانت تعرفها منذ الطفولة. . . وسألتها جولدا مائير:»ماذا حدث؟ يقولون إنك تخجلين من كونك يهودية». كان هذا النوع من التقارب والعلاقات بين كبار المسؤولين السوفيت والدبلوماسيين الأجانب يمثل خطئا غير مقبول وتهديدًا لأمن الدولة. . . تم نفي زوجة مولوتوف إلى أدغال كازاخستان. كما تم نفي أخت زوجة ميخائيل كالينين اليهودية والتي كانت زوجة للجنرال خالوفي قائد سلاح المعدات الهندسية والتموين في الجيش»[29]

و في بلد يقوده ستالين لم يكن هناك من حاكم غيره. وكان على المواطنين من أي قومية أو ديانة أن يخضعوا له وحده ولحزبه ودولته ومثله وفكرته الأممية ويهابون جهازه القمعي وحده. وإذا ما وجد جماعة من الناس في الاتحاد السوفيتي مصدرا آخر للإلهام والمثل العليا خارج حدود الاتحاد السوفيتي فإنَّ مصيرهم هو الأسوأ. وفي النهاية لم يتعلم اليهود من مصير الشعوب الأخرى في الاتحاد السوفيتي التي لم تبد له ولنظامه الولاء والإخلاص الكافي.

و تعرض اليهود السوفيت لموجه من القمع والتنكيل.

تم حل اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية. وتم قتل ميخائيل في «كارثة طائرة». وتم القبض على العشرات من المثقفين اليهود المشاهير. وفي يوليو 1952 تم محاكمتهم سرًا. وكان من بين مواد الاتهام فضلًا عن «الدعاية المضادة للاتحاد السوفيتي والقومية والكوسموبولوتان والتجسس» اتهامهم بالمشاركة في مؤامرة تهدف إلى فصل القرم عن الاتحاد السوفيتي بمساعدة القوى العظمى الاستعمارية. وهنا تحديدًا تم استغلال خطاب سليمان ميخائيل إلى ستالين. وتم الحكم بالإعدام رميًا بالرصاص على أكثر من عشرين من رجال الثقافة اليهود الأعضاء في اللجنة اليهودية لمناهضة الفاشية. وتم تنفيذ الحكم في صيف 1952م.

ويبدو أن عشرات الآلاف من اليهود قد تم نفيهم إلى معتقلات ومعسكرات عمل متناثرة في أنحاء البلاد. وفي البداية تم التخلص من هؤلاء الذين يستطيع النظام تسيير العمل بدونهم وهم رجال الثقافة والسياسة والمجتمع. وقد نجا من هؤلاء بعض ممن كانت لديه مهارة التلون. فيما لم يتم المساس بالعلماء في التخصصات الطبيعية وخاصة من كان منهم يشارك في صناعة القنبلة الذرية ومن ثم الهيدروجينية.

و تم إغلاق الصحف الدورية اليهودية وأغلب مسارحهم ومكتباتهم ومتاحفهم. وباختصار تم وضع هدف محدد يرمي إلى القضاء على وتدمير هذه الثقافة التي تشكلت عبر قرون من التاريخ. ووصلت موجة العنف والقمع تلك إلى إقليم الحكم الذاتي اليهودي وتم إغلاق المدارس اليهودية.

وجرى كل هذا في أجواء من هيستيريا الحرب عندما بدأ العالم يسير نحو حرب عالمية جديدة. وتواصلت الحرب الكورية ومات مئات الآلاف من البشر. وفي أمريكا زادت حدة العداء ضد الشيوعية حتى وصل إلى درجة مرتفعة من التشنج والحدة. وقد دفع كل من إيتيل وجوليوس روزينبرج الثمن وراحا ضحية «اصطياد السحرة» وأعدما على كرسي كهربائي يتهمة بيعهما أسرار تصنيع القنبلة النووية إلى الاتحاد السوفيتي.

و ظهرت بعد الشروخ والانشقاقات في المعسكر الإشتراكي. فمنذ انفصال تيتو واستبعاد الحزب الشيوعي اليوغوسلافي في يونيو 1948 بدأ التجهيز لشن حمله ضد بعض القيادات. حيث تم توجيه اتهامات لهم باعتناقهم فكر تيتو وبالتعاون مع أجهزة المخابرات الأمريكية. وفي نهاية عام 1951 تم اعتقال قادة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي ومن بين 14 متهما كان هناك 11 يهوديا منهم الأمين العام للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي رودولف سلانسكي. وقد وجهت المحكمة إليهم تهمة «بث أفكار قومية يهودية» والتعاون مع الصهيونية العالمية.

و ظهر التشنج في العصر الستاليني في أوجه في قضية الأطباء أو «القتلى في البلاطي البيضاء». حيث تم اتهام أطباء بارزين أغلبهم يهود كانوا يعالجون القادة السوفيت بما فيهم ستالين نفسه بأنهم عملاء للمخابرات الأمريكية، ويتم استخدامهم كوسيلة طبية لقتل القادة والتحضير لسلسلة جديدة من عمليات القتل والاغتيال. وقد أكد نيكيتا خروشوف ان ستالين تابع بنفسه عمليات الاستجواب في هذه القضية. وطلب من وزير الأمن القومي س. اجناتيف بالتوصل إلى اعترافات منهم بأسرع وقت وبكل السبل». [30]

و مات ستالين في مارس 1953م وماتت قضية «مؤامرة الأطباء» معه. وفي بداية إبريل تم الإفراج عن المتهمين. وعادت العلاقات بين إسـرائيل والاتحاد السوفيتي في يوليو 1953م بعـد أن تم قطعها في فبراير 1952م إثر تفجير قنبلة في مقر البعثة السـوفيتية. وقدمت تل أبيب اعتذارها عن حادثة فبراير وصرحت أنها لن تكون طرفًا في أي حلف يستهدف الإضرار بالاتحاد السوفيتي.

كانت السنوات السـابقة بالغة القسوة، وأحيانًا مأسـاوية بالنسبة لممثلي طبقة المثقفين اليهـود الذين بقوا مخلصين وأوفياء لثقافتهم وللطباع القومي اليهودي. كما كانت سـنوات صعبة بالنسبة لبسطاء الناس الذين شعروا بأن العلاقات مع المواطنين غير اليهود ازدادت توترًا وعدوانية. وأصبح من القواعد الملزمة في اختيار الكوادر ما يعرف باليقظة الثورية أو التشكك في إخـلاص الجميع. تم إلقاء القبض على الكثير من اليهود وتم نفيهم أو على الأقل فصلهم مـن العمل. كما تم إبعـاد الكثيرين منهم من المناصب العليا والهامـة في مجالات الاقتصاد والسياسة حيث لم يعد أحد يثق بهم. فيما واصل مئات الآلاف من اليهود عملهم ودراستهم وحياتهم كما كانوا في الماضي في ظل المعاناة من نفس المشكلات التي يعاني منها غيرهم. حتى إنَّ الكثير منهم كان مؤمنا بأن ستالين بريئ مما حدث.

وكتـب هنري اليج:«إنَّ حقيقة إنَّ اليهود لم يتم تجاهلهم وإبعادهم لا ريب فيها. والدليل على ذلك عدد اليهود الأعضاء في الحزب الشـيوعي الحاكم في الاتحاد السـوفيتي. ففي عام 1979م كانت نسـبة المواطنين السـوفيت الأعضاء في الحزب مقارنة إلى عدد السكان هي 7 لكل مئة مواطن. في حين كانت نسبة اليهود 14 لكل مئة»[31]

و بعد وفاة سـتالين اختفى مصطلح معاداة السـامية الرسمي ودفن معه. وظلت الدعاية الرسمية تؤكد أنَّ «مشـكلة القوميات قد تم حلها وبشـكل نهائي في الاتحاد السوفيتي». وكان القضية اليهودية لم تكن في يوم ما. لم يكن يقلق السـلطات الحالة المزرية التي أضحت عليها الثقافة والأدب باللغة العبرية حيث كادت تختفي.

غير إنَّ البذور السـامة التي تم زرعها في السـنوات الأخيرة من عهد ستالين أتت أكلها. أصبحت كلمة يهودي في خانة القومية تثير الشك ويتبعها إجراءات عنصرية سواء في السماح بالعمل والنشـاط السياسي أو تقلد بعض المناصب والمهن التي ترتبط بالأمن القومي. وكان الكثير من المثقفين والعمال اليهود يتعاطفون مع إسـرائيل إلاَّ أنهم لم يكونوا على اسـتعداد

للسفر إلى هناك حيث أصبحت الجذور الإثنية والثقافية والدينية غريبة عليهم، وكذا إلى اللغة العبرية العائدة من جديد. وبلغ حجم الهجرة من الاتحاد السوفيتي طوال الفترة من 1945 – 1987 ثلاثمائة ألف شخص توجه جزء قليل منهم إلى إسرائيل. وفي السبعينيات والثمانينيات كان إعلان أغلب اليهود عن رغبتهم للسفر إلى إسرائيل ما هو إلى حيلة للخروج من الاتحاد السوفيتي ومن ثم التوجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلدان الغربية.

وقد أدى الموقف السوفيتي تجاه الصراع العربي الإسرائيلي إلى تعميق المشاكل الداخلية.

ففي يناير 1954م استخدم الاتحاد السوفيت للمرة الأولى حق الفيتو في مجلس الأمن لدعم العرب في صراعهم مع إسرائيل. والحديث هنا عن محاولة إسرائيل تحويل جزء من مياه نهر الأردن. وفي مارس 1954م استخدم الاتحاد السوفيتي مرة أخرى حق الفيتو وفي هذه المرة ضد قرار دعوة مصر إلى فتح قناة السويس للسفن الإسرائيلية.

و عندما أصبح واضحًا إنَّ إسرائيل لن تصبح قاعدة للنفوذ السوفيتي في المنطقة فقدت قيمتها بالنسبة للقيادة السوفيتية. وفي الوقت نفسه أخذت الحركات المعارضة للغرب في البلدان العربية في الخمسينيات تزداد قوة وتأثيرا وتوفرت الظروف لتحقيق تعاون وثيق بين الاتحاد السوفيتي والعديد من الأنظمة العربية. لم تكن هناك رغبة في البداية لدى القيادة السوفيتية للتورط في الصراع العربي الإسرائيلي. ولكن كون الصراع مع إسرائيل كان من أولويات الحكومات العربية فقد أصبح جليًا أنَّ دعم الموقف العربي يفتح الأبواب على مصراعيها لتحقيق التعاون.

ومن وجهة نظر القيادة الإسرائيلية كان إمداد الاتحاد السوفيتي البلدان العربية بالسلام يمثل تهديدا لأمن إسرائيل لأن هذا السلاح في النهاية لن يستخدم ضد الإمبريالية الغربية بل ضد إسرائيل. كانت السياسة السوفيتية الأحادية تُعقد عمل ونشاط القوى اليسارية في إسرائيل وتضعفها في النهاية. ولكن وبشكل عام كان المسؤولون الإسرائيليون يعون الهدف الذي يجب التوصل إليه في العلاقة المتبادلة مع الاتحاد السوفيتي إلاَّ وهو ضمان هجرة اليهود السوفيت. فإذا كانت إسرائيل ترغب في النمو والتطور فإنها تحتاج إلى مئات الآلاف من المهاجرين. ويبقى الاتحاد السوفيتي المخزن الأكبر لليهود في العالم والذي توقفت الهجرة منه في العشرينيات. غير أنَّ السياسة المعادية للصهيونية والتعاون مع العرب كان يمنع تحقيق الهدف والمساح لليهود بمغادرة الاتحاد السوفيتي. بالإضافة إلى ذلك كان السماح بهجره عدد كبير من

اليهود الســـوفيت إلى إسرائيل بمثابة اعتراف بفشل السياسة القومية السوفيتية وسيكون سابقة خطيرة.

و يعتقد بعض المحللين في الغرب وروسيا أنَّ السياسة السوفيتية في علاقتها بإسرائيل كانت تتسم بمعاداة السامية. فهناك الكثير من الكتب السوفيتية حول الصهيونية. وأحيانا ما نطالع فيها ملاحظات وأقوال تتســـم بالعداء الواضح للسامية. إلاَّ أنه من التسطيح وصف السياسة السوفيتية في علاقتها بإسرائيل بكونها معادية للسامية. فالاتحاد السوفيتي دائمًا كان داعمًا لحق إسرائيل في البقاء كما حارب المتطرفين في العالم العربي الذين دعوا لإزالة إسرائيل من الوجود وإلقاء اليهود في البحر. وأدى انتقاد إسرائيل إلى انتقاد سياستها التوسعية وتعاونها مع الغرب وسياستها في الأراضي المحتلة ومعارضتها للتوجهات التقدمية في العالم العربي.

ويعود مصدر العلاقة السلبية أو العدائية تجاه إسرائيل إلى عقيدة مفادها أنَّ المصالح طويلة الأمد للاتحاد السوفيتي تبقى مرتبطة بالعالم العربي. كما أنَّ إسرائيل بقيت أداه في لعبة أمريكية تهدد بها السلام والاســـتقرار في الشرق الأوسط ومن هذا المنطلق حرص الاتحاد السوفيتي في سبيل كفاحه ضد الرجعية على تحقيق المصالح الوطنية للعرب.

و رأت القيادة الســـوفيتية أنه وعلى الرغم من مؤسســـاتها الديمقراطية ارتبطت إســـرائيل اقتصاديا وعســـكريا وتسليحيا بعدد من الأنظمة العســـكرية القمعية. وكان للقوات المسلحة أفضلية ونفوذ واســـع في الحياة السياســـية الداخلية. وفي صيف 1982م وعلى إثر الأعتداء الإســـرائيلي على لبنان وجدت الولايات المتحدة نفسها في عزله دولية حين دعمت حكومة مناحيم بيجين. أثارت عمليات القتل الجماعي للفلســـطينيين في صبرا وشـــاتيلا ومعسكرات الفلسطينيين اللاجئين في الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل غضبا ورد فعل دولي سلبي وازدادت عزلة إســـرائيل دوليًا. كان لدى الاتحاد الســـوفيتي سمعه دعائية كانت تســـتوجب الالتزام بها ووضعهـــا في الاعتبـــار مع المصالح السياســـية. ولذا أكد القادة الســـوفيت دائمًا أنَّ الاتحاد السوفيتي لا يعارض إسرائيل بل السياسة الإسرائيلية.

وتقوم سياســـة الاتحاد الســـوفيتي في دعم حق إســـرائيل في البقاء على التقييم الموضوعي والواقعي للقوة الإســـرائيلية في أي تطورات محتملة للأحداث أو أي ســـيناريو بديل. وكانت سياسة الدعم تلك سياســـة صادقة. وفي الوقت نفسه كانت عزلة إسرائيل واعتمادها المطلق على دعم واشنطن وتعاونها الوثيق معها (مع كل طموحاتها الإقليمية الخاصة) سببًا في توجيه

الانتقادات لها.

قامت الدعاية المعادية لإسـرائيل والصهيونية على عدة مسلمات. فوفقا للرؤية السوفيتية كانت إسـرائيل «أداة في يد الإمبريالية الأمريكيـة» في تنفيذ مؤامراتها ضد الأنظمة التقدمية في العـالم العربي. والحق يقال إنَّ السـوفيت قد كتبوا أيضًا عـن « هيمنة اللوبي الصهيوني» في أمريكا، وأنَّ أمريكا هي ككلب يلعب بذيله الذي هو إسـرائيل. وقد وصفوا إسـرائيل في الوقت نفسه بأنها كعروس ماريونيت وأنها دولة إمبريالية صغيرة. أمَّا عن الأحداث التي وقعت على الحدود فقد تبنت وسـائل الإعلام رأي القاهرة ودمشـق وحدهما. وتم تجاهل حقيقة أنَّ القارئ السوفيتي اعتاد على البحث عن الحقيقة بين السطور وعادة ما كان يؤمن بأن الحقيقة هي عكس ما ينشر.

والغالبية العظمى من اليهود السـوفيت الذين استشـعروا الحرج بسـبب مشاركة إسرائيل في العـدوان الثلاثي في عام 1956م لم يقبلوا بالرأي الرسمي للدعاية السـوفيتية فيما يتعلق بالحـرب العربية الإسـرائيلية في 1967م. أثار الانتصار الإسـرائيلي مشـاعر الفخر لدى اليهود السـوفيت، وموجه جديـدة من عدم الثقة في إخلاصهم. اتسـمت الحملة الدعائية المعادية للصهيونية بالطابـع الإيديولوجي وكانت حملة مكثفة لدرجة أنها تذكرنا بالحملة ضد الكوسموبوليتان في السـنوات الأخيرة من عهد ستالين، وحتى أنَّ الكثيرين أصبحوا يرون فيها حملة معاداة لسامية وليس لصهيونية. وربطت الدعاية السوفيتية ربيع براغ والأحداث في بولندا بنشاط الصهيونية العالمية.

و عندمـا احتاج الأمـر إلى حملة دعائية للتغطية على عملية نشـر أنظمة الدفاع الجوي في مصر كان موضوع معادة الصهيونية وإسـرائيل هو الأمثل واسـتغلال رفض بعض اليهود السوفيت دعوة جولدا مائير لهم بالعودة إلى الديار في إسرائيل. واستعرت الحملة وأقسم العديد من اليهود السـوفيتي، سـواء صدقا أو تحت ضغط، بولائهم وانتمائهم لوطنهم الإشـتراكي وانتقدوا بشدة إسرائيل وسياستها. وكلما زاد عدد هذه المقالات كلما ضعف إيمان الناس بها وبصدقها وتنامت رغبة اليهود السـوفيت في الهجرة، وبالتالي زاد التعامل مع اليهود السوفيت بريبة وعدم ثقة.

و اسـتطيع أنَّ أؤكد انطلاقا من انطباعاتي الشـخصية أنه ورغم حاجة هذه النتائج إلى مراجعه، وتأكيد من خلال اسـتطلاعات رأي واسـتبيانات للرأي العام لنصل إلى حقيقة أنَّ

الحملات الدعائية السياسية شيء ورأي المجتمع الحقيقي أمر آخر. صحيح كان هناك كراهية فطرية للسامية، وكانت هناك قيود على تقلد اليهود عدد من الوظائف. ولكن في المقابل كان السائد هو وجود تفاعل وعلاقات متبادلة إنسانية وانتشار لليهود في معظم الوظائف والأعمال وترقيهم في المناصب، والمكانة الاجتماعية (وفقا للمعايير السوفيتية بالطبع) وبروزهم في مختلف مناحي ومجالات الحياة بما فيها السياسي.

و بقي هناك بعض التناقض في التعامل مع اليهود. ففي حين تم الاعتراف بهم والتعامل معهم رسميًا بكونهم أقلية قومية إلاَّ أنهم لم يتمتعوا بحكم ذاتي سياسي أو ثقافي مثل باقي الاقليات. فمن ناحية كان اليهود علمانيين في معظمهم ولم يكونوا في حاجة إلى معابد أو مسارح أو صحف خاصة بهم ولم تكن لديهم بالطبع أي رغبه في الهجرة. ومن ناحية أخرى استمرت الشكوك في القيادة الحكومية والحزبية تجاههم في مدى ولائهم للدولة السوفيتية. وقد أدت هذه الحالة إلى فرض العديد من القيود على اليهود في المجالات السياسية والعسكرية وحتى العلمية. وأدت حالة عدم الثقة تلك إلى انعزال اليهود وإحساسهم أكثر بالغربة.

و عندما بدأت فجأه موجة الهجرة الجماعية من الاتحاد السوفيتي في الأعوام الثالث والرابع والخامس من البيروسترويكا كان السبب فيها ليس في رغبه اليهود السفر إلى إسرائيل بل لرغبتهم في مغادرة الاتحاد السوفيتي. وسافر هؤلاء لأنه كان لديهم ملجأ يفرون إليه على عكس غيرهم من مواطني الاتحاد السوفيتي الذين كان يعانون أزمة طاحنة جاءت نتاجا لأربعة عقود كاملة من السياسات الإشتراكية التجريبية الخاطئة. وبدا اليهود وكأنهم مقياس للحالة المعنوية للمجتمع السوفيتي، وتوجهاته السياسية وآماله وعواطفة. وفي العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين راهن اليهود على الانصهار في المجتمع الاشتراكي وأعلنوا عن مساهمتهم في بناء هذا المجتمع. وقد لحقت بهم خسائر كبيرة ولكنهم كانوا يؤمنون بالمستقبل الواعد. أمَّا الآن فقد أيقنوا بانعدام أفق وعدم إمكانية الاستمرار في العيش والبقاء في مجتمع ضل طريقه تمامًا.

أثرت هذه الأوضاع الداخلية على السياسة الخارجية في لحظة تاريخية تحكمت في مصير العلاقات الدولية والنظام العالمي والوضع في الشرق الأوسط والأدنى. وعالميا سعت القيادة السوفيتية إلى تحقيق التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذا الإطار كان تخفيف القيود على سفر اليهود السوفيت أحد الدلائل المهمة على صدق النوايا السوفيتية. كان من المهم الابتعاد عن التوجهات الأحادية المؤيدة للعرب في الصراع العربي الإسرائيلي وتسريع الاتصالات مع إسرائيل، وتطبيع هذه العلاقات بشكل تدريجي.

و تغير الموقف ولم يكن ذلك بفعل السياسة الخارجية السوفيتية بل بفعل تأثير الوضع الداخلي على السياسة الخارجية. فإذا كان المجتمع السوفيتي يسير نحو الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان فإنه ينبغي أن يخفف قواعد سفر مواطنيه إلى الخارج. وقامت القيادة السوفيتية بذلك أملاً منها في تحسين علاقاتها مع الجالية اليهودية القوية في الغرب وخاصة في الولايات المتحدة وسعيًا لاكتساب ثقتها.

وجرت اتصالات كثيفة بين الاتحاد السوفيتي وإسرائيل وزادت وتيرة تبادل وجهات النظر بين الطرفين. ففي الثالث من يناير 1991م تم رفع مكاتب التمثيل في تل أبيب وموسكو إلى مستوى القنصليات العامة.

وبعد انتهاء الحرب في الخليج العربي في 16 إبريل 1991م التقى رئيس الوزراء السوفيتي ف. بافلوف في لندن برئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق شامير. كما زار وزير الخارجية السوفيتي أ. بيسميرتني إسرائيل في مايو من العام نفسه. وشهدت الفترة من يونيو إلى أغسطس زيارات لرئيس اتحاد الغرف التجارية الإسرائيلية س. أميت ووزير الزراعة **ر. ايتان** ووزير النقل **م. كاتسول**.

وفي الأول من أكتوبر 1991م تم افتتاح خط جوى مباشر للطيران العارض بين موسكو وتل أبيب. ووقعت شركتا العال وايرفلوت على اتفاقية لتشغيل خطوط طيران بين موسكو وسان بطرسبورج وتل أبيب.

و على الرغم من فتح باب الهجرة إلى إسرائيل منذ عام 1989م غير أنَّ الاتصالات بين الجانبين في مختلف المجالات لم تبدا إلَّا في أكتوبر 1991م. وبعدها بشهرين انهار الاتحاد السوفيتي وحلت روسيا محله.

و قبل عام 1967م لم تكن القضية الفلسطينية من أولويات السياسة الخارجية السوفيتية، ولم تشغل مكانًا هامًا بها. و قد أصبح الفلسطينيون الذين بقوا في إسرائيل بعد عام 1948 مواطنين إسرائيليين رغم حرمانهم من حقوقهم السياسية والمدنية الكاملة. فيما أصبح سكان الضفة الغربية رعايا أردنيين وسكان قطاع غزه تحت الإدارة المصرية ودون تحديد مصيرهم. لم يكن الاتحاد السوفيتي مهتمًا قبل عام 1967م بحل هذه القضية. وبعد حرب 1967م مباشرة واصل الاتحاد السوفيتي التعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي بوصفه صراع بين دول.

غير أنَّ احتلال إسرائيل لما تبقى من الأراضي الفلسطينية عجل بإثارة قضية الهوية الوطنية الفلسطينية. جعلت المعاناة والمصير المشترك منهم شعبا موحدًا له سمات خاصة ومساعي وآمال سياسية مشتركة. ونشطت منظمة التحرير الفلسطينية التي تأسست في عام 1964م رغم إنَّ السنوات الأولى لها كانت تتسم ببعض الراديكالية والتطرف.

يقول أ. **دزاسوخوف**[32]: عانى الشعب العربي في فلسطين ومنظمة التحرير الفلسطينية مرحلة صعبة بعد التخلي عن البرامج والشعارات المتطرفة. فمنذ عام 1967 طرحت أفكار ورؤى جذبت تعاطف المجتمع الدولي والاتحاد السوفيتي معها. وزادت أهمية القضية الفلسطينية حتى أصبحت حركة تحرر وطني على الرغم من اختلاف منظمة التحرير عن غيرها من المنظمات التي ظهرت في فتره التخلص من الاستعمار. والحق يقال كانت هناك شكوك كثيرة حول إمكانية منح حركة المقاومة الفلسطينية صفة حركة التحرر الوطني.

و تمثل العلاقات السوفيتية مع منظمة التحرير الفلسطينية مثالًا فريدًا في التعامل المرن والواقعي والتجاوب حيال تغير الموقف في المنطقة في إطار المبادئ التي أضحت في حقبة بريجينيف أكثر واقعية ومرونة. وبمساعدة منظمة التحرير سعت الدبلوماسية السوفيتية إلى عدم السماح بتنفيذ أفكار السياسة الأمريكية والإسرائيلية في أجواء المواجهة التي سيطرت في تلك الآونة والتي حددت تصرفات اللاعبين الأساسيين والثانويين في منطقة الشرق الأوسط.

و عندما تفهم جمال عبد الناصر قيمة ووزن منظمة التحرير الفلسطينية كأداة للضغط على إسرائيل وعلى غيرها من البلدان العربية سعى إلى إقناع القيادة السوفيتية بذلك. وانضم ياسر عرفات إلى الوفد المصري الذي زار موسكو في صيف 1968 برئاسة عبد الناصر.

ووفقا لما ذكره أ. دزاسوخوف، عندما وصل ياسر عرفات بصحبة عبد الناصر إلى موسكو في عام 1968م تم تنظيم لقاءات له مع النائب الأول لرئيس الوزراء السوفيتي وعضو المكتب السياسي ك. مازوروف وكذا مع سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ب. بونوماريوف. وحينها صدر قرار المكتب السياسي بتكليف لجنة تضامن آسيا وأفريقيا بإجراء اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية. [33]

المؤلف: [34] هل يمكن تحديد حجم الخلافات التي كانت قائمة مع الفلسطينيين؟

أ. دزاسوخوف: عندما كان الفلسطينيون يظهرون قدرًا من التطرف ويلجئون إلى الإرهاب كان لذلك تأثيره على حرارة ودف العلاقات السوفيتية الفلسطينية. وكانت القيادة الفلسطينية

في كل مرة مضطرة إلى تفسير تصرفاتها. وأحيانا كان الموقف الفلسطيني يتوافق مع مواقف البلدان العربية الأخرى، والتي تعاملت إجمالًا بشكل بناء مع الأزمة في الشرق الأوسط.

المؤلف: هل أدت العلاقات التي تربطنا بمنظمة التحرير إلى التأثير سلبا على حوارنا مع إسرائيل؟

أ. دزاسوخوف: بالطبع. أثرت سلبًا غير أنه لا يمكن وصف اتصالاتنا بالفلسطينيين بأنها كانت خطأ لأنه حتى ولو لم تكن تلك الاتصالات فأنا لا اعتقد إنَّ الموقف الإسرائيلي كان ليتغير كثيراً.

أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية تحصل على الأسلحة من الاتحاد السوفيتي. ووفقا لمصادر غربية تلقى الضباط والجنود التابعين لتشكيلات المنظمة المسلحة تدريباتهم في الاتحاد السوفيتي. وبلغ الأمر ذروته في عام 1972م. [35] غير أنه ووفقا لشهادة ممثلي وزراه الدفاع السوفيتية والكي جي بي لم يكن الفلسطينيون في حاجة إلى تدريب عسكري على أراضي الاتحاد السوفيتي. حيث كان قادة المنظمة يفضلون أن يتدرب الجنود والضباط في سوريا وقبلها في مصر حيث كان هؤلاء ينضمون إلى تشكيلات الجيوش العربية. وبعد عام 1982م تمركز جزء من التشكيلات المسلحة الفلسطينية في جنوب اليمن.

بعد حرب 1973 قويت العلاقات السوفيتية الفلسطينية حيث أرغم فقدان مصر القيادة السوفيتية على البحث عن شركاء جدد لضمهم إلى «التحالف ضد القوى الاستعمارية» حيث ضم التحالف كل من سوريا والعراق واليمن الجنوبي ومنظمة التحرير الفلسطينية وفي بعض الأوقات ليبيا والجزائر. وفي خريف 1974م أعلن الاتحاد السوفيتي رسميا دعمه لفكرة قيام الدولة الفلسطينية كعودة جديدة إلى القرار الصادر عام 1947 من الأمم المتحدة حول تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية. والسبب في ذلك ان القضية الفلسطينية أصبحت هي محور الصراع العربي الإسرائيلي ومفتاح الحل فيه. وأيدت اغلب الدول العربية فكرة قيام الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. غير ان عدد قليل من هذه الدول دعى إلى تدمير الكيان الصهيوني. (إسرائيل). كان الدعم السوفيتي لفكرة قيام الدولة الفلسطينية يعرقل إرساء السلام على الطريقة الإسرائيلية أو الأمريكية في الشرق الأوسط. ومع تدهور العلاقات مع مصر وتنامي الدور الأمريكي في المنطقة تضاعف دعم السوفيت لمنظمة التحرير الفلسطينية. وشهد مؤتمر القمة العربية في الرباط عام 1982 الاتفاق على دعم قيام الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. ووافق البرلمان الفلسطيني على القرار (برلمان في

المنفى) على الرغم من معارضة بعض الفصائل الفلسطينية داخل منظمة التحرير. وقد أتاح هذا التأييد فرصة للاتحاد السوفيتي للمناورة والاتصال مع البلدان العربية.

و تم افتتاح مكتب تمثيلي لمنظمة التحرير الفلسطينية في موسكو في عام 1976 (تابع للجنة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا) وكان لها نفس الوضع والامتيازات التي تحظى بها حركات التحرر الوطني الأخرى مثل المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا أو منظمة شعوب جنوب غرب أفريقيا في ناميبيا. وبعد كامب ديفيد وتحديدا في نوفمبر 1978 اعترف الاتحاد السوفيتي بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلًا شرعيًا وحيدًا للشعب الفلسطيني. وفي أكتوبر 1981م اكتسب مكتب التمثيل الفلسطيني وضعًا دبلوماسيًا ثم تحول إلى سفارة بعد إعلان قيام الدولة الفلسطينية في عام 1988م.

ولم تكن العلاقات السوفيتية بمنظمة التحرير صافية دائمًا. كانت هناك خلافات أحيانا بسبب التطلعات المبالغ فيها من جانب الفلسطينيين بالحصول على تأييد كامل لأفعالهم وتصريحاتهم وأحيانا بسبب اخطاء السوفيت في تقدير التقارب بين موافق المنظمة والموقف السوفيتي فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية أو غيرها من القضايا الدولية. كان هناك تأييد حذر من قيادة المنظمة للموقف السوفيتي في أفغانستان وكان لذلك مفعول السحر على المحيطين ببريجينييف على الرغم من إنَّ ياسر عرفات وحرصًا منه على عدم إغضاب المملكة العربية السعودية المانح الرئيسي له حينها ولغيره في العالم الإسلامي كان أحيانا يصدر تصريحات أكثر توازنا أثناء تقييم الأحداث الجارية في أفغانستان.

كان هناك تباين في المواقف بين منظمة التحرير الفلسطينية والاتحاد السوفيتي تجاه التسوية المستقبلية. ففي بعض الحيان أكد الاتحاد السوفيتي على ضرورة مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية منذ البداية في مؤتمر السلام وفي أحيان أخرى كان يبحث عن حلول وسط تسمح بضم المنظمة إلى المباحثات في مرحلة معينة.

ومن بين الصعوبات التي انتابت العلاقات السوفيتية بمنظمة التحرير الفلسطينية تلك التي تتعلق بطبيعة المنظمة والتي شهدت في بعض الأوقات انشقاقات داخلية وصلت إلى حد الصدامات المسلح وسفك الدماء والتي عكست خلافا حادا في داخل العالم العربي. وعلى الرغم من التقارب الإيديولوجي مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بزعامة نايف حواتمه كان الاتحاد السوفيت يتعامل معهما بحذر شديد خوفا من نهجهما المتطرف. غير أن دعم الجبهتين للاتحاد السوفيتي في أفغانستان جلب لهما تعاطفا من جانب القيادات السوفيتية ودعمًا بمواقفهما.

يقول **أ. دزاســوخوف:** [36] تكمن إحدى مشاكل العلاقات المتبادلة بين الاتحاد السوفيتي والفلسطينيين منح السوفيت الأفضلية أحيانا إلى الفصائل الراديكالية الفلسطينية والتي كانت تتبنى أفكارًا يسارية في حين كانت منظمة فتح بزعامة ياسر عرفات تعبر وتعكس بشكل تام الآمال الوطنية والتي هي المحرك الأساســي في سياســتنا. ويمكن القول إنَّ تنوع العلاقات مع مختلف المنظمات السياسية الفلسطينية (7 – 13 منظمة) مثل عائقًا كبيرًا لنا.

كانت محاولات التشكيك في حركة فتح زعما أنها تتبنى أفكارًا برجوازية ولعلاقاتها الوطيدة مع الأنظمة الإسلامية المحافظة وقربها من المملكة العربية السعودية محاولات يائسة وغير ذات مضمون.

أمَّا بقية المنظمات الفلسطينية كالصاعقة وجبهة النضال الشعبي والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين وجبهة التحرير العربية فقد حظيت أيضا باهتمام من القيادة السوفيتية إلاَّ أنْ هذه المنظمات كانت تدار من قبل دول عربية أخرى.

و في عام 1981م تأســس الحزب الشيوعي الفلسطيني ولكنه لم يدفع القيادة السوفيتية إلى اعتبــاره بديلا لفتح في منظمة التحرير الفلســطينية. ولكنهــا نظرت إلى الأمر على أنه ميلاد لحليف جديد داخل المنظمة لن يتأثر في وقت ما بعدم اســتقرار القرار في العالم العربي أو لأي نزعات برجوازية. وأدت البيروسترويكا وما تبعها من انهيار للتكتل الاشتراكي والاتحاد السوفيتي نفسه، وما رافقه من موجات هجرة جماعية لليهود إلى إسرائيل إلى وضع الشيوعيين الفلسطينيين في موقف شديد الصعوبة مثل غيرهم من قوى اليسار والموالين للاتحاد السوفيتي.

و تمثل أحداث لبنان مرحلة حزينة في العلاقات السوفيتية الفلسطينية. فقد لام الفلسطينيون الاتحاد الســوفيتي على عدم قيامه بالضغط على سوريا عندما وقفت الأخيرة مؤقتا إلى صف قوى اليمين المســيحي وسمحت لهم بالقيام بعمليات عســكرية ضد الفلسطينيين. لم يتدخل الاتحاد الســوفيتي بشــكل فعال أيضا في صيف 1982م عندما قاوم الفلسطينيون العدوان الإسرائيلي على لبنان.

ومع تطور موقف قيادة المنظمة فيما يتعلق بالتســوية الشــرق أوسطية حدث تحسن كبير في العلاقة مع الاتحاد الســوفيتي. حيث قامت كل من فتح والمجلس الوطني الفلسطيني في عام 1974م بالدعوة إلى إقامة السلطة الفلسطينية على أي أراضي محررة. وكان ذلك يعني الموافقة على إنشاء الدولة الفلسطينية على حدود عام 1967م أي على أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة وتشمل بالطبع القدس الشرقية.

ومن الصعب القول إنَّ جورباتشوف كان مهتمًا شخصيًا بالوضع في حركة المقاومة الفلسطينية. إلاَّ أنْ هناك تغيرات طرأت على علاقة القيادة السوفيتية بالفلسطينية بنفس الوتيرة التي تغيرت فيها السياسة السوفيتية الخارجية كلها.

وفي أثناء ذروة الانتفاضة الفلسطينية واثناء اللقاء الذي عقد في عام 1988م في الجزائر أعلن المجلس الوطني من طرف واحد قيام الدولة الفلسطينية مع الاعتراف بالقرارات ذات الصلة من الأمم المتحدة حول فلسطين منذ عام 1947م. وتقارب الموقفان الأمريكي والسوفيتي. بالطبع بقيت القدس الشرقية والقدس عموما حجر العثرة في مستقبل التسوية غير أنَّ الدبلوماسية السوفيتية رأت تأجيل حسم موضوع القدس إلى المستقبل. ولم يرد موضوع القدس في أي من المشروعات القرارات المطروحة من الاتحاد السوفيتي بعد عام 1981م عندما تقدم بريجينيف بمشروع للتسوية الشرق أوسطية. وفي إبريل 1988م تمت دعوة ياسر عرفات على رأس وفد رسمي إلى موسكو حيث التقى مع ميخائيل جورباتشوف. ودفعت القيادة السوفيتية الفلسطينيين لانتهاج سياسة الاعتدال والحلول الوسط. ومن بين الحجج التي سيقت حينها أنَّ عمليات التسوية والمصالحة تسود العالم كله ويجب أنْ يتم تطبيق المبدأ ذاته في الشرق الأوسط. كما أنَّ القضية الفلسطينية تمثل بؤرة ومركز الصراع العربي الإسرائيلي ولا تعتبر منذ اليوم نقطة صراع بين موسكو وواشنطن.

وعند تحديد الأطراف المدعوة لحضور مؤتمر السلام القادم لم تصر القيادة السوفيتية على مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية في المرحلة الأولى حيث اقترحت اطراً كثيرة مقبولة من جميع الأطراف. كانت الدعوة إلى منح الفلسطينيين حقهم في تحديد مصيرهم لا تعني وجوبا التعجيل بإقامة الدولة الفلسطينية وتم إسقاط عبارة «الدولة الفلسطينية» من البيان الختامي للقاء جورباتشوف مع عرفات، وكذا من تصريحات شيفرنادزه بالقاهرة. وبدأت مباحثات حذرة بين الفلسطينيين وممثلي الإدارة الأمريكية في تونس ورحبت موسكو بهذه الخطوة وأعربت لاحقا عن أسفها عندما توقفت.

و على الرغم من تأييد الاتحاد السوفيتي للتسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط لم يبد احتجاجه على دعوة بعض الفصائل داخل المنظمة للمقاومة المسلحة. وكانت القيادة السوفيتية تنأى بنفسها عن التعليق على هذه الدعوات. ومنذ تأسيس الحزب البلشفي اعتبر الإرهاب وسيلة غير بناءه للمقاومة. جرت اتصالات بين الكي جي بي والجماعات المتطرفة في العالم وذكر الكتاب الغربيون ذلك في كتاباتهم. ولكن ليس هناك دليل واحد على أنَّ

القيادة السوفيتية قد راهنت يوما ما على الإرهاب. ومن المعروف أنَّ العلاقة بين الكي جي بي وأجهزة المخابرات الفلسطينية كانت وثيقة في منتصف ونهاية السبعينيات، وكان هناك تبادل نشط للمعلومات بين الطرفين.

كان التعاون بين الاتحاد السوفيتي ومنظمة التحرير الفلسطينية حتى نهاية الثمانينيات يتسم بالتنوع والشمولية والقوة. نالت المنظمة دعمًا سياسيًا ودعائيًا من الاتحاد السوفيتي بالإضافة إلى الدعم العسكري. غير أنه لا توجد بيانات رسمية سوفيتية بهذا الخصوص. كما يجهل كاتب هذه السطور أيضا معلومة ما إذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد دفعت مقابل إمدادات السلاح السوفيتي أو أنها كانت منحًا لا ترد. لم يكن الاتحاد السوفيتي المورد الوحيد والذي لا بديل عنه في السلاح للفلسطينيين. كانت هذه المنظمة لديها مصادر تمويل كبيرة، وكانت تشتري السلاح من مختلف الدول ومنها الغربية (عبر قنوات غير رسمية). كما تم توجيه مساعدات طبية محدودة للفلسطينيين وتم منح الطلاب الفلسطينيين منحًا دراسية في الجامعات والمعاهد السوفيتية. وأشرف على الاتصالات السوفيتية الفلسطينية سفارة الاتحاد السوفيتي في لبنان أولاً ثم في تونس عندما تم نقل مقر المنظمة إلى هناك.

و تخلت منظمة التحرير الفلسطينية عن تبعيتها للاتحاد السوفيتي وحافظت على نهج سياسي مستقل رغم احترامها وأخذها في الحسبان الموقف السوفيتي وقواعد السياسة الخارجية السوفيتية. كما لم يضع القادة في موسكو من بين أهدافهم تحويل المنظمة إلى «عميل» تابع. فقد شهدت العلاقات الكثير من العثرات الواضحة بعد تدشين مرحلة البيروسترويكا وسعي الاتحاد السوفيتي البحث عن اتفاق مؤقت مع الغرب وإنهاء الحرب الباردة وموضوع الهجرة اليهودية. ولم تعد المشاعر العدائية الفلسطينية تجاه الغرب ذات قيمة عالية بالنسبة للسياسة السوفيتية.

و قد أضعف موقف المنظمة الموالي لصدام حسين أثناء أزمة الكويت من نفوذ المنظمة في العالم العربي وفي الغرب، وبالتالي في الاتحاد السوفيتي. ورغم أنه كان موقفًا فرض على قادة المنظمة ويلات عزلهم من جانب الجماهير التي كانت في معظمها داعمة للعراق. إلا إنَّ النتيجة بدت واضحة وهي أنَّ كلا من الفلسطينيين وسياسة المنظمة أصبحا خارج دائرة اهتمام الدبلوماسية السوفيتية ومن بعدها الروسية وإنَّ لم يتم تجاهل القضية تماما.

ولم يعد هناك تساو في الأهمية التي توليها السياسة الروسية لكل من الفلسطينيين والإسرائيليين.

Endnotes

1. صحيفة «ازفيستيا» 26 ابريل 1990.
2. حوار مع إ. شيفرنادزه، أغسطس 1991م
3. Golan G. Yom Kippur and After: Soviet Union and the Middle East Crisis. New York, Cambridge, 1977, c. 47.
4. صحيفة ''العمل''، 18 ابريل 1987م
5. حوار مع أ. بوفين، ابريل 1992م
6. Golan G. Soviet Policies in the Middle East. Cambridge, New York, 1990.
7. راجع'' البرافدا''، 14 مارس 1992م، ''ازفيستيا'' 6 نوفمبر 1989م، 27 يناير 1991م، 20 يناير 1992م.
8. الموسوعة السوفيتية الكبرى، الجزء التاسع، موسكو، 1972م، ص. 16
9. Laqueur W. A History of Zionism. L. , 1972, c. 241
10. Les Juives Sovietiques depuis 1917. Sous la direction de Leonel Kochan. P. , 1971, c. 118
11. ف. لينين، المجموعة الكاملة، الجزء 12، ص. 347
12. المرجع السابق
13. لوبلينسكي ل. ، بوليانسكي ن، القانون الإجرائي الجنائي لروسيا السوفيتية، موسكو، 1928م، ص. 124
14. Alleg H. L'URSS et les juifs. P. , 1989, c. 168.
15. Les Juives Sovietiques, c. 150.
16. Rabinovich السياسة الوطنية بالأرقام، موسكو، 1929م، ص. 89، راجع أيضا S. Les Juifs en Union Sovietique. M. , 1982, c. 26
17. Rabinovich S. Les Juifs en Union Sovietique. M. , 1982, c. 26.
18. Robin R. L'Amour du Yiddish. P. , 1984

19. المرجع السابق
20. Rabinovich S, Les Juifs en Union Sovietique, c. 27.
21. Alleg H. L'URSS et les juifs, c. 191.
22. اليهود السوفيت: الأساطير والواقع، موسكو، 1972، ص. 20
23. صحيفة "البرافدا"، 30 نوفمبر 1947م
24. . جروميكو أ. ، نضال الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة من اجل السلام والأمن والتعاون، موسكو، 1986م، ص. 5051
25. زيفياجيلسكايا، الجزء الرابع، 2-1
26. المرجع السابق
27. Alleg H. L'URSS et les juifs, c. 246-247.
28. Rabin I. The Rabin Memoirs. L. , 1979, c. 74-75
29. Alleg H. L'URSS et les juifs, c. 247
30. قضايا التاريخ، 1991، العدد التاسع، ص. 54
31. Alleg H. L'URSS et les juifs, c. 258
32. حوار مع أ. دزاسوخوف، ابريل 1992م
33. المرجع السابق
34. المرجع السابق
35. Golan G. Gorbachev's Middle East Strateg Foreign Affairs, 1987, № 1, c. 41-49. y
36. حوار مع دزاسوخوف، ابريل 1992 .